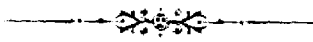


كى أنقل الآيات التى سطرتمها ولولا ما قاله الأب بروغلى من أن تقدم
الاسلام أمر . ندرج تحت ما بشر به أبو المؤمنين لما تجرأت أن أطبق تلك
الآيات على الاسلام ولا ذهبت الى أن فى انتشار هذا الدين سرّاً من
الاسرار الربانية



﴿ الفصل السابع ﴾

« الاسلام فى الجزائر »

استعفاء المسلمين على التصير — المبشرون بغير رسالة — جمعيات الدين
فى الاسلام — غرض تلك الجمعيات — تحول الهيئة فى
المسلمين — التقليد — التورات

شاهدنا الاسلام يبرهن على قوته وحياته باكتساب الوثنيين فى أواسط
أفريقيا وتجنيدهم تحت راية القرآن وله كذلك فى الشمال الشرقى من بلاد
الزنج وفى مصر العليا (السودان) وفى (سريناق) ما يدل على قوته الغربية
وسيره المدهش اذ قامت مملكتان قويتان مملكة المهدى ومملكة امام
جغوب منذ خمسين سنة على هيئة حكومات تشخص الحكومة الدينية
التي أرادها النبي الاسلامى كذلك توجد فى الزاوية المقابلة لهاتين المملكتين
مملكة ثالثة فى شمال أفريقيا وهى على نسقهما ولا تزال تقاوم هجمات الديانة المسيحية
ظافرة عليها ونعنى بها مملكة مراکش ولا شك فى أن سلطانها مع ما عليه بعض
العشائر التي تسكن البلاد الخاضعة لحكمه من عدم الاذعان تماماً لسلطته سيكون

إذا ألمت بتلك الاقطار المحن حامى حوزة الدين الاسلامى فى الغرب بأجمعه ونحن نترك البحث فى حال هاتيك الممالك الاسلامية التى اجتمعت فيها السلطة الدينية والسلطة السياسية فى يد حاكم واحد طبقاً لقواعد القرآن وهى البلاد الممتازة التى حفظ الموحدون فى مكة لها اسم دار السلام وهو الاسم الذى تميل اليه نفس مصر وتركيا على غير جدوى حيث التمدن الغربى قد كدر صفاء المذهب الاصلى ونقتصر على الاسلام فى الجزائر وفى ممالكنا الافريقية حيث يزاحمه الدين المسيحى والحكومة المسيحية وهى البلاد التى سماها المسلمون دار الحرب أى دار الجهاد فى الاسلام والبحث عن الاسلام فيها يدور على ثلاث مسائل . هل أحدث الانجيل تغييراً فى القرآن واذا فرضنا ان الاسلام لم يزل محفوظاً هل حصل تقرب بين المسلمين والمسيحيين يرجى معه حصول الامتزاج التام فى المستقبل وهل الجهاد اعنى خروج المسلمين عن طاعة حكامهم المسيحيين لا يزال امراً منتظراً يهدد فتح هاتيك الاقطار

فاما الاسلام فليس من اهله من يرق عنه الى غيره وبعيد عن فكر المسلمين تصور هذا الامر حتى انهم لا يجدون لفظاً يعبرون به عن صفات من يأتية كما انهم تحيروا فى وصف المسلمين الذين تجنسوا بالجنسية الفرنسية لان فيها معنى من معانى الردة ولذلك اضطروا الى استعمال لفظ من الفاظ اللغة الفرنسية ليطلقوه اسماً عليهم فقالوا (متورنى) باسكان الميم وضم التاء ومعناه المنقلبون .

ومن الصعب ان يكيف الانسان حالة مسلم يريد أحد المسيحيين ان

ينصره حتى لو شبهناه بمسيحي متنور يريد وثني ان يميل به الى عبادة الاصنام
 لكان التشبيه ناقصاً والسبب في استعصاء المسلم على التدين بالنصرانية
 استعصاء قويا هو احتقاره النصارى واعجابه كل الاعجاب بكونه من
 الموحدين وقد يعتقد بعضهم ان فضل دينهم يفوق على النصرانية بدرجات
 يستحيل معها على المسيحيين ان لا يوقنوا بصحة الاسلام حتى انهم يتخذون
 مسالمنا اعترافاً ضمنياً منا بتلك الافضية ولا نهم انما يعبدون الله تعبداً ذهنياً
 وليس لديهم من علامات أو معدات خارجية ويرون في احتفالات النصارى
 ضرباً من ضروب العبادة الوثنية ويسمون ارباب الانجيل أهل الكتاب
 ولكنهم لا يجعلونهم في الرتبة التي تلي رتبة المسلمين بل كثير منهم يمتنونهم
 أكثر من مقت الوثنيين لكونهم غيروا ما نزل الله عليهم من الدين
 بعد ما علموه

تلك هي افكار المسلمين في الديانة المسيحية وبديهي انها مانع حصين
 يحول بين النصرانية وبين التقدم فلقد نجح المرسلون في تنصير الامم المختلفة
 التي انتشروا فيها سواء كانت متبربرة أو متمدنة ولاكنهم لم يروا في طريقهم
 بلداً قام في وجههم وسدت عليهم فيه جميع ابواب الفتح كما لا قوم المسلمين
 لاننا شاهدنا الوثنيين المتمدين تركوا دينهم الحمجي لعدم موافقته لما
 وصات اليه عقولهم من التهذيب وكان لهم من تهذيبهم معين على تلقى
 المعقولات المحضة فسهل ذلك على المسلمين عرض مذهبهم بطريق التقرير
 المنطقي وتمكنوا من اقناعهم حتى ان القديس بولس نفسه كان يلاقى كثيراً
 من الوثنيين الذين يتركون آلهتهم لتبنيهم كذبها ويرى من بعض اليونان

ميلا الى أخذ الامور بالدليل والبرهان وقد سهل ايضا تنصير لوثنيين المتبربرين بالمرسلين عليهم من المزية في العلم والافضلية في سمو الادراك ولكن أى مرسل وأى خير يمكنه ابداً ان يرحح المسلم عن تمسكه بدينه ويجعله يعبد ما يحتقر ويحتقر ذلك الدين المتين الذى يرى فيه مجده الاعلى وكيف يمكن لأولئك المرسلين ان يزيلوا من فكره ما تمكن منه ضد الديانة المسيحية الى الابد وهو لا يقبل المناظرة فيها ولا يطبق الجدل عليها :

ولقد تسألوا عن امكان محاربة الاسلام بالعنف والقوة حيث هو لا يقبل التبدل بالاقناع والحجة ولكنه ما كان يتيسر للفرنساويين ايام الفتح ان يخضعوا المسلمين للدين المسيحى كما فعل الملك شارلمان بل اضطرت الكنيسة الى السكون كما التزمت جانب المسالمة فى هذه الايام بين الامم والمسالمة حكمة منها ولكنها لا تقبلها بصفة مبدأ من مبادئ الدين المسيحى بل تردها رداً . هكذا كان محظوراً علينا كل قهر فى الدين طبقاً لمعاهدة الجزائر حيث التزمت فيها الحكومة الفرنسية بواسطة الجنرال (بورمون) ان تحافظ على ديانة رعاياها من العرب وتحترمها وقد كاد ان يحصل استثناء سنة ١٨٦٨ ذلك ان اسقف الجزائر أخذته الخيبة واراد ان ينصر عدداً كبيراً من المسلمين فجمع كثيراً من اليتامى بعد القحط المهلك الذى ابتليت به الجزائر وعمدهم ولكن الجنرال (مكماهون) حاكم البلاد اذ ذاك تدخل وابطل هذا المسعى لمخالفته لما تعهدت به فرنسا ومن عجائب المتناقضات ان في الجزائر الآن من الكتاب من يأسف على ترك تلك الطريقة ولو انهم كانوا في عاصمة

بلادهم لاصطفوا بين أشد الناس دفاعا عن حرية الأديان فكأنهم يرجون حكومة تسمى في تفريق الأديان بالهدايا وبذل الأموال من جهة وتضطهد المسلمين الموحدين في دينهم من جهة أخرى ولو أنه قام في مبدأ الفتح قس ماهر وساعده أمير يميل إلى انتشار الدين المسيحي من نفسه أو بتأثير النساء عليه فجمع ذلك القس إليه كل ساخط على الحكومة والحال الجديد ووعدهم بالمال وعزة الجاه لكان لنا سنة ١٨٧٠ آلاف مؤلفة من العرب قد تركوا دينهم وتربوا تربية فرنساوية حقة

فاستعصاء المسلمين على التنصر بواسطة المرسلين واستحالة إخضاعهم بالقوة هما السببان اللذان يعترضان تنصرهم والمرسلون من الكاثوليك هم أول المعترفين بوجوب العدول عن الوعظ مباشرة ولكنهم مع ذلك متمسكون برسالتهم فلم يملوا من الجهاد في سبيلها ولم تنحط عزائمهم أمام صلابة الإسلام فإنما نزلوا مهدوا الطريق وآووا الفقراء والمساكين واقاموا في خدمة المرضى ونشروا التعليم بين الاطفال قال موسيو (سريفاريا) ولكنهم لم يحوموا حول مشكلة الدين مطلقاً وهم انما يزرعون البعد عن الدين مع كونهم من الاحبار على انهم لم ينجحوا في ادخال الانجيل بين العرب فقد كانوا من احسن الوسائل لنشر نفوذ الدولة الفرنسية والحكومة مخطئة في عدم حمايتهم والمجافاة في معاملتهم مع انهم قصروا حياتهم على خدمة الدين ومع ذلك فقد خالفوا ضمائرهم وعملوا على ما فيه منفعة فرنسا تركا لما لا يستطيع ولا ت حين زمان اصلاح مافات فقد انتشر المرسلون من الانكليز البروتستانت بين القبائل وجعلوا يخلصون ظل سيادتنا هنالك ترسل الدولة البريطانية

التوراة تحملها الرعاة الى تلك البلاد التي فتحها جنودنا مرات متتابة كما
ترسلهم في جميع ارجاء المسكونة وعلى الخصوص حيث نخشى تقدم النفوذ
الفرنساوى

ولقد بقى الاسلام سليماً على التمام في الجزائر الا ان المسلم لاحظ كونه
محكوماً بمن لا يعتقد بدينه فاخفى في نفسه ما يضره له من البغض والاحتقار
ولولا ان قوماً من اصحاب الدين يحركون على الدوام في قلبه عاطفة لايمان
لصح الامل بضعف اسلامه مع مرور الايام ولولا ذلك القوم جمعيات سرية
تعمل دائماً على تجديد الدين الاسلامى بين جميع الموحدين وعلى الخصوص
بين الامم التي اخضعها المسيحيون

ومن المعلوم ان فتوح العرب وحكومة المغاربة في اسبانيا بعده جمعت
بين افريقيا وأوروبا زمناً طويلاً ولكن انتهى الامر بان انزوى الاسلام
الى ما بعد بوغاز جبل طارق وانقطعت الصلة بين القارتين بطرد المغاربة
سنة ١٦٠٩ وشخص الناس الى بلاد الغرب كأنها ملجأ للقرآن منيع لا تصل
اليه الاطماع وارض بعيدة عن الاختلاط بالمسيحيين واعتقدوا بان الدين
الاسلامى يصير كأنه في بلاد عرب جديدة يزاوله الناس على صفائه القديم
فلما فتحت فرنسا بلاد الجزائر انتهكت حرمة الاسلام ورجعت الصلات
ثانية بين افريقيا الاسلامية وأوروبا المسيحية وانفتح الباب في ممالك الغرب
الى عدو أشد وقعاً على القرآن من الجنود المجندة وهو التمدن الحالى ففطن
المسلمون الى ما أحرق بهم من الاخطار وارادوا تمكين الجامعة وتوحيد
الروابط بينهم وهي عند المسلمين أشد قوة منها لدى غيرهم من الامم التي
١١ - الاسلام

تدين بدين واحد لان القرآن شريعة دينية وقانون مدنى وسياسى ومن ذلك وجدت حركة فى النفوس غايتها مقاومة النصرانية بجميع الوسائل الممكنة وعلى الخصوص مغالبة المدن الجديد باسم الايمان قال القائد (رين) وتأتى قوة هذه الحركة الاسلامية من تعدد الطوائف الدينية التى وجدت من أول هذا القرن وعظم شأنها فى جميع الانحاء وصار لها تأثير شديد فى قلوب الناس ولهم رسل ومريدون يطوفون البلاد الاسلامية التى لاحد لها وغير الاسلامية كمبشرين أو مستعطين أو قاصدين للحج ويصلون بهذه الكيفية بين الاقطار من مكة الى جغوب الى القسطنطينية وبغداد الى فاس وتنكبكتو الى القاهرة الى الخرطوم الى زنجبار ثم كلكتا وجاوه ومنهم التاجر والمنجم وطالب العلم والطبيب والصانع والشحاذ والسائل والمشعوذ والمتشرد والمجذوب تصنعاً أو المأخوذ على غير شعور منه برسالته وكلهم يلاقون صدوراً رحبة ومنزلة كريمة بين المؤمنين الذين يحمونهم من النوازل ويدرون عنهم تهجم الحكومات

ونحن لانريد أن نأتى على تاريخ تلك الطوائف الدينية المنتشرة فى الاسلام كما فعل القائد (رين) بل نكتفى بالإشارة الى سبب نراه العلة فى انتشار هذه الجمعيات فى أيامنا وبعد ذلك نبين المقصد الذى يرمون اليه فى الجزائر

فاما المشايخ المعروفون عند المسلمين فلا تأثير لهم عليهم لان العبادة ذهنية أو هى قلبية فلا تحتاج لقوام كما انها لا تحتاج لمساجد أو جوامع ومن أعجب العجب انه لا درجات فى تلك الجمعية مع انها دينية صرفة فلا يعرف

الناس الارئيساً واحداً هو الامام أي خليفة النبي فاليه مرجع السلطتين الدينية والسياسية ومن هنا يسهل على المناهضة معرفة الاضطراب العظيم الذي حصل في المسلمين من فتوحات المسيحيين ودخول التمدن الاوروباوي في بلادهم لان نتيجة ذلك ضياع السلطة لوحيدة التي يخضع لها الاسلام اذ لم يعد يوجد الآن امام عام للموحدين نعم ان سلطان القسطنطينية يعتبر نفسه خليفة الرسول ويتسمى باسم شيخ الاسلام الا ان هذا اللقب في اسناده اليه لقب تشريف ليس الا غير معترف به في الولايات الخارجة عن حكمه والدول الاوروباوية أفرغت جهدها في تحقيره بعوامل التأثير والتذليل التي جاءت الباب العالي اليها فلم تقم تلك الجمعيات بحفظ الروابط بين جميع المسلمين وجمعهم في صعيد واحد لاصبح المسلمون كقطيع عظيم من الماشية بدون راعٍ ومن هنا تعلم ان كثرة الطوائف الدينية في الاسلام وكثرة المريدن فيها في هذه الايام ضرورة اقتضاها التكاتف على حفظ الدين والتوازر على صيانة الجامعة بين المسلمين

وقد كانت هذه الضرورة أشد في الجزائر منها في غيرها من البلدان فان الفرنسيين اوجدوا فيها جمعية روحانية اسلامية رسمية لمقصدهم ولم يدم الا كما يدوم الخيال هو التأثير على الاهالي بواسطة الدين ورتبوا لاعضائها مرتبات يتقاضونها من الحكومة فكانوا شغلة في أعين المسلمين ولو انهم بقوا متوصلوا في الغالب الى استمالة بعض الاهالي ولكن الطوائف الدينية الحرة قاومتهم واستقطبت مقامهم بين الناس ونجحت في مقصدها تماماً وليس اليوم من كلمة تطاع الا اذا كانت صادرة عن أحد رؤساء تلك الطوائف

وأولئك الرؤساء يميلون على الدوام الى الزهد والتقشف ولهم تعبير في القول لا يفهم عمال الحكومة منه شيئاً اذا عثروا على بعض الفاظه فهم يدعون الناس تحت طي هذا الطلسم الى مقاومة التقدم ومغالبة التمدن باقصى الجهود ذلك انهم آمنون من جهة تنصر المسلمين فهو أمر معدوم كما قدمنا ولذلك اجمعوا أمرهم على مقاومة سير التمدن لكونه ربما أدى الى فتور في الاعتقاد عندهم وهم الذين يحيون روح احتقار النصرانية في النفوس ويجعلون اجتهادنا في تأليف أهل الجزائر واستمالتهم اليها يذهب هباء منثوراً

ومع انتشار الطوائف الاسلامية في الجزائر وقوة تأثيرها فانها لم تتمكن من منع تغيير الاهالى من حيث هيئتهم الاجتماعية تغيراً محسوساً والعامل في هذا هو الاحتلال الفرنسي كما أشار اليه موسيو (شاتليه) حيث قال تنقسم أهالى الجزائر الى ثلاثة أقسام فمنهم الرعاة الرحل وأصلهم من العرب ومنهم الريفيون أصحاب الزراعة واغلبهم ينتمون الى القبائل ومنهم اخلاط المغاربة ومنهم المدنيون وهم التجار والصناع وقد حصلوا على شيء من المعرفة الصناعية وأصلهم مختلط منهم من المغاربة الذين اختلطوا بالأتراك وامتزج فيهم أيضاً دم العرب والقبائل اهـ

ويختلف تأثير التمدن في الجزائر باختلاف هذه الطبقات الثلاث ولكنه احدث في كل قسم منها ميلا الى حالة مدنية جديدة فقد خفف الرحل روحانهم وجيآتهم وصاروا نصف رحل وبعضهم مال الى زراعة الاراضى الخصبة في مرتفع الوديان ومنخفضات الصحراء وتخرج سكان الارياف الى التخلق باخلاق المدنيين وأما هؤلاء فقد تأثروا كثيراً باختلاطهم

باصحاب المعاملات التجارية ومعاشرتهم لاصحاب الصناعة الاوروبوية
وتعودهم على الاخذ والعطاء مع أهالى البلاد الغربية وكثيراً ما أخذ العربى
الذى يسكن المدن عن التمدن الاوروبى رذائله ومعائبه وخالف أوامر
القرآن وشرب المسكرات وهو فى الغالب مفرطاً فى تعاطيها وأكل
الاطعمة المحرمة الا لحم الخنزير فهو ينفر منه باصل فطرته ومع ذلك فهو
لا يزال يحافظ تمام المحافظة على بعض أوامر الكتاب كصوم رمضان حتى
ان الباغيات يصمن فى اما كن فحشهن

ومع ذلك كله فان عوامل التمدن لم تتمكن من اضعاف الاعتقاد فى قلب
المسلم وان زحزحته قليلا عن المحافظة على جميع اوامر القرآن بل لا يزال الايمان
عندهم تاماً كاملاً خلافا لما يراه موسىو (شائليه) فانه يحسب ان عدد المسلمين
الذين لا يؤمنون ولا يقيمون الفروض يزداد كل يوم فى مدائن الجزائر وعندنا
ان هذا القول صحيح بالنظر لترك الواجبات وان كنا نراه مخالفاً للواقع من
جهة ضعف الاعتقادات فما من مسلم صار غير مقيد فى الاعتقاد بل يجوز
انه أهمل جميع الواجبات ولكن اعتقاده لم يتحول وصحيح فى الاسلام ان
يبقى الرجل مسلماً وهو لا يعمل بما يمليه عليه القرآن

ولعمري لست أدري ان كان هذا التغيير على نحو ما شرحناه
عنوان تقدم فى اهل الجزائر وانه رفع من أخلاقهم وزاد فى رغد عيشهم
وعلى الخصوص قلل من بغضهم للمسيحيين . أنا لأظن ذلك فانى وان
سلمت بان بعض قبائل البدو الرحل مالوا الى الزراعة ولكنى لأرى
فى انتقالهم من البداوة الى الزراعة ومن الزراعة الى سكنى المدن

ولامصار موجباً التهذيب الاخلاق ورفع درجة الآداب لان معيشة القبائل على حالتهم الفطرية معها كان فيها من النقص هي أشد احتفاظاً على الاخلاق واعظم باعث على التمسك باصول الادب فليس من سلام على النفوس الا معيشة الرجل بين اهله بعيداً عن المدن وما حوته فالمعيشة في الصحراء ناشفة يابسة ولكن ما ضمته الخيام ليس عرصة للتبدد والضياع اما اذا سكن العربي في المدينة خصوصاً المدن الاوروباوية فانه يكون على مقربة من دواعي اللهو وتزداد حاجاته ويطلب القهوة والحلوى وتميل امرأته الى الملابس القطنية ويده لا تقوى على سد هذه المطالب كلها فيعيش في ضجر مادي ينشأ عنه ألم ادبي ولقد شوهد كثيراً ان الضنك يشتد على القبائل بقدر تقربها من المدن الاوروباوية فاول القبائل التي خضعت لحكم الفاتحين واختلطت باقوامهم كانت اول القبائل التي لحقها الدمار وابادها الاندثار وانحطاط المدني اديباً هو السبب في احتقاره من ساكن البادية اكثر من حالته السيئة التي يعيش فيها . وليس لفرنسا ثمرة تجنبها من انحطاط رعاياها المسلمين في الجزائر اديباً ومادياً ولهذا نرى الحكومة تبحث عن مداواة هذا الداء وارادت تهذيبهم فوجدت التعليم الفرنسي عندهم وانشأت مدارس للتعليم الابتدائي واخرى للتعليم الثانوي ومدارس للصنائع ولكنها ما كانت لتنجح في هذا المسمى لانه معها حسنت نوايا المسيحيين لا يأمنون من حبوط مساعيهم في تمدين الاهالي وان شئت قل ان كل امر يأتى على ايديهم ممقوت ومرذول لذلك كان التعليم الفرنسي معيياً من الاصل ولم ينجح في شيء حتى ولم يقلل من نفور الاهالي نحونا

واليك ما قاله أحد أعضاء جمعية التعليم موسيو (شارفريا) في هذا المعنى (إذا اردت ان تعرف مقدر بغض الالهالى لنا فانظر الى درجة تعليمهم الفرنسيون فكما زاد تعليمهم وجب الحذر منهم) وقد مكثت زمنا طويلا أقاوم هذه الحقيقة التي توجب اليأس وتقطع الرجاء ولم ارجع عن رأيي الا لما رأيت جميع من شاورتهم فيها متفقين على تقريرها)

وقد قال حاكم الجزائر نفسه موسيو (ترمان) في مجلس الادارة الاعلى سنة ١٨٨٦ (لقد دلتنا التجارب على ان اكثر الناس عداا لنا هم اولئك الذين علمناهم كثيرا) على ان الحكومة نفسها قد اعترفت بمجزها عن تحويل الجزائريين الى فرنسيين بواسطة التعليم الفرنسي ولم تتمكن من احياء التعليم العربى وان اكثر من فتح المدارس كما ان جميع الصنائع والحرف الاهلية قد اندثرت على مقربة من مدارسها الصناعية والفنية التي أنشأتها. والذي نستنتجه من هذه التجارب التي لم تجدد نفعا هو ان مشكلة التقريب بين العنصرين الاوروبى والاهلى لا يمكن حلها بمعرفة الحكومة لان يد الادارة يد ثقيلة لاتصالح لعمل لطيف، مثل هذا وحدة الموظفين مانعة من التبصر فلا صبر لهم على انتظار الثمرة الصغيرة زمنا مديدا وبالجملة فان كل وسيلة تتخذ في سبيل التقريب الذي نبهت فيه رديئة نعم قد يتجو الدهر بمعض المتناقضات ويولد بمعض المتشابهات ولكن ان يحصل اتحاد تام بين العنصرين مدى الابد وكم من أوهم توهما الناس في مشكلة الجزائر يضحكننا اليوم تذكرا بعضها كالذى تخيله موسيو (دولانجل) أيام كتب تقريره على مشروع استشارة الامة سنة ١٨٦٥ حيث ذكر فيه هذه الجملة (ولم يبق الا

زمن يسير حتى تفتخر الامة التي بلغت عواطف الشرف فيها للدرجة القصوى
 بالاشتراك في أعمال الامة الفرنسية التي لها في العالمين مقام رفيع) ومن
 الخيال أيضاً ماذهب اليه موسيو (لورو بوليو) من أماكن التوصل لجعل
 العرب رعية صادقة من المخلصين في الولاء ، فستغرب ان يفكر اولئك القوم
 في رجاء هذه الفوائد من الجزائر وفي ان يصل أهلوها الى تقرب يحلمهم
 يوماً من الايام على حب الوطن الفرنسي ولو صح هذا كان أمراً خارقاً
 للعادة لم يسبق له مثيل في التاريخ فانا نعلم ان اختلاط العنصرين ببعضهما
 دام تسعة قرون في بلاد الاندلس من سنة ٧١٠ الى سنة ١٦٠٠ ولم نشاهد
 مع ذلك ان وطن الغالب صار وطناً للمغلوب ومع ذلك فالوهم عندنا متسلطن
 في ان نطالب الجزائريين بما نطالب به الفرنسيين من الولاء والاخلاص
 اتفق سنة ١٨٨١ انه في مبدأ ثورة ابى عمارة قام احد القواد وكان من
 أشدهم موالاتنا وتوجه برجاله الى جنوب ولاية حوران لقتال المنشقين فلما
 رجع علم بان قبيلة خرجت عن الطاعة ورفعت خيامها ورحلت بنسائها
 وأولادها وماشيئها فذهب الى مراكز في طلبها وعاد بها بعد سنة من الزمان
 واقنعها بوجوب الطاعة والخضوع فاحيل الى المحاكمة أمام مجلس عسكري
 بحجة انه خان الدولة الفرنسية . وفي الواقع انه لم يخلص لنا الود اذ كان
 يلزمه على رأيهم ان يترك لنا عائلته وأملاكه ولاكننا نعلم ان كثيراً من
 الفرنسيين لا يودون ان يكون مثل هذا الطلب محكاً لوطنيتهن ومعياريهن
 لمعرفة صدقهن لبلادهن

ولسنا نود ذكر جميع الخيالات التي تصورها الباحثون في طريقة

التقريب لان ذلك شرح بطول ففهم من ذهبت به الاحلام الى تصور
الجزائر أهلة بعرب يلبسون القبعة ويلبفحون السترة الصغيرة (جكيتة)
وقد نسوا لغة الوحي المقدسة وجعلوا يرتلون القرآن بلغة الفرنساويين نقلا
عن ترجمة (كزيميرسكى) ورأينا ان البون يبق شاسعاً بين المسلم والمسيحي
وان من السعود ان تقرب الشقة بين الاوربي والعربي وان هذا التقرب يحصل
من نفسه وهو ينشأ من التجاء المستعمرين الفرنساويين الى العرب في حرث
الارض وغرسها ولو ان المستعمرين ياملون العرب برفق ولين ويقسطون
معهم لافادوا في هذا السبيل أكثر مما أفادت اللوائح والقوانين اذ لست ادرى
لم ان الرجل منهم يكون في باريس من الاحرار المتطرفين فاذا جاء الجزائر ترزعت
نفسه الى احياء أشد الازمان في حكم الشرفاء تعسفاً واجحافاً وعندى ان
أليق الناس بالعمل المطلوب هم المرسلون لا الكاثوليك فلا تترقى الاهالى
في معارج المدنية مع بقائهم على دينهم الا بهم نعم ان الترقى يكون بطيئاً
ولكنه يصح أن يسمى تقدماً ودليلاً على ما نقول حالة التبادل التي توطئها
المرسلون فانهم توصلوا مع أهله الى درجة عظمى

مضى على الاسلام في الجزائر نصف قرن لم يؤثر فيه الاحتلال
الفرنساوى كذلك تفانت امواج التمدن الاوروبوى تحت أقدام مقاومة
الطوائف الدينية في تلك البلاد ولو ان تلك الطوائف تعرف من نفسها
اقتداراً على قذفنا في البحر لتقيم بعدنا مملكة اسلامية جامعة (أى بين
السلطة الدينية والسلطة السياسية) لا تقهمت الاخطار وقلبت الحكومة
المسيحية ولكنهم يرون الغرض بعيداً لذلك هم يقتصرون مساعيهم على احياء

روح البغضاء في نفوس تابعيهم مما يكفي لتزكيتهم غالباً تلاوة بعض الجمل التي ملئت سخطاً على النصارى على أن جميع رؤساء الطوائف المذكورة ليسوا واحداً في مقاومة التمدن الغربي بل يحذو بعضهم حذو من يضع الشرع ليقيد به غيره ويستفيد من مكتشفات ذلك التمدن التي حرموها على المرابطين والكبر الطوائف واشدها تمسكاً بعبثها هي طائفة السنوسية وهي التي يخشى منها أكثر من غيرها ولها شيخ ذو دهاء ينظر إليه البعض كجامع وحدة الاسلام وهو رجل رأى انه يضعف عن مقاومة الحكومة الفرنسية في الجزائر مقاومة صريحة فعدل عن فتح الجزائر الى فتح أرض غيرها الاسلام وعلم سيدى السنوسى ما أحزن المسلمين من حكم المسيحيين كما علم موسى الذى نجاه الله ما أصاب قومه من فرعون وأراد خلاصهم من يد الكفار وان يقودهم من دار الحرب الى دار السلام فناداهم ان اخرجوا من دياركم ان ارض الله واسعة الفضاء وانتقل الى أرض فسيحة الجوانب خالية من السكان فلاحق به كل مسلم لا يرى له بقاء مع المسيحيين ويود الهرب من معاشرة الكافرين ولكن ليس فى تلك الأرض عسل يجرى ولا ضرع يدر كما كان فى بلاد الكنعانيين بل هي صحراء ايدي الشاسعة التى اختارها السنوسى ليهجر العرب اليها بلاد الجزائر وتونس وطرابلس ومصر والبوسفور ذى الرياض والمناظر ومع ذلك فالنداء يلبى كل يوم من جميع بلاد الاسلام ويقم الواردون فى تلك الرمال من غير سخط ولا ضجر كما ترك بنو اسرائيل مصر فى غابر الازمان وما منهم من يأسف على الكسكسو الذى كان يأكله بنهمه تحت حكم الذى كفروا وقد أخذت الصحراء

تتحول بأعمال المهاجرين ففيها اليوم آبار ونخيل ومثلهم في ذلك مثل قبائل
العباديين الذين هاجروا الى (مازاب) في الصحراء وعمروها

وفي اجتماع المسلمين الذين لم يرضهم حكمنا حول جفبـوب خطر
أشار اليه وكلاؤنا في طرابلس ومن الواجب على الدول الاوروبية
ان تأخذ حذرهما منه. اما الجزائر فهي ترى فيهم عدواً لها وما دام
الامر بالنظر اليها دائراً بين عدوين فهي تفضل بعد أولئك القوم لانها
تكون يبعدهم عنها آمنة. طمئنة من اعمال قوم متعصبين. ومع هذا لو قدر
فرنسا انها احتاجت في احد حروبها الاوروبية الى الاستعانة بجيوشها
الاfrيقية وانتهزت احدى الدول ضعفها في افريقيا فحركات ضد حكومة
المسيحيين طائفة السنوسى والطوائف الاخرى فانه يخشى من حدوث ثورة
تسوء عقباها في الجزائر. ولكننا نرى في هذه الحالة وهي اسوأ حال يمكن
تصورها بالنسبة الى الحكومة الفرنسية ان انشقاق الرؤساء واحتقاد
الطوائف تمنع الثورة من ان تمتد الى جميع ارجاء البلاد فالقوضى علة الاسلام
الباطنية وهي ايضا في الغالب علة الضعف عند جميع ولد سأم فان اسماعيل
يضرب خيامه على الدوام تجاه مضارب اخوته ولولا الانقسام الداخلى
والاضطرابات التى حدثت بين المسلمين في غابر الازمان لما نجحت النصرانية.
وهذه الاسباب نفسها تضعف العزيمة عن القيام بتوحيد كلمة الاسلام ولولاها
لما حفظت فرنسا املاكها مع ما ارتكبته من الخطأ وماتأتية من الاغلاط
في افريقيا الشمالية وهي املاك ستباغ بمقتضى النمو الطبيعى عما قليل عشرين
مليوناً من المسلمين

والخلاصة انه لا يخشى من ثورة عامة في الجزائر ولكن لا تزال تلك البلاد معرضة للقلاقل الثانوية وتنشأ هذه الاضطرابات بغير المؤثرات الدينية فكثيراً ما تنور القبائل من نفسها ورغماً عن نصائح الرؤساء ومشائخ الطرق لانهم واقفون تمام الوقوف على ما نحن عليه من الاقتدار في كبح جماحهم ولذلك فهم لا يرمون الى حركة عاقبتها وبال عليهم وعلى التابعين لطوائفهم بل ان اكبر اسباب الثورة في الجنوب رغبة رؤساء القبائل في استرجاع امتيازاتهم لانهم من بقايا اولئك النعم الذين سادوا قديماً في البلاد وفي جهة التل ضنك الاهالي وخطأ الموظفين في اجراء مقتضى بعض اللوائح والقوانين ومع ذلك كله فانا نرى ان كل ثورة بدأت لا تلبث ان يعزوها اصحابها الى مصدر ديني فينادون بالحرب المقدسة كما ينادون باحد الرؤساء الدينيين ذوى النفوذ قائداً عاماً لحركتهم وان عارضوا به . ومن عادة تلك الحركات انها تبدأ قليلة الاهمية ولكنها تعظم ويكبر شرها بخطأ الموكلين في اتخاذها ولو ان الحكومة لاحظت جانب العدل والحكمة في ادارة الاهالي والفت الامتيازات التدمية التي لرؤساء القبائل تماماً واختطت السكك الحديدية في جنوب البلاد وأصلحت من نظام الجيش لقلت حركات الثورة في بلاد الجزائر وهذا المسلمون من شواطئ البحر الابيض المتوسط الى شواطئ نهر النيجر

﴿ خاتمة ﴾

والذى نستخلصه مما تقدم انه يجب على الدول الاوروبية التى تميل الى التوسع فى الاستعمار ان تتعرف ديانة رعاياها أو أصدقائها المسلمين كما ينبغى اذ الدول لاتزال حتى الساعة على اعتقادها الذى كانت عليه أيام القرون الوسطى وهو ان الاسلام صورة من صور الديانة الوثنية اللهم الا نفراً قليلا من المستشرقين الذين لاتأثير لآرائهم فى السياسة مع انه لو جاز عقلا ان ترتب الديانات التى دانت بها المخلوقات لوجب جعل الاسلام اولها بعد ديانة التثليث لانها أى الديانة المسيحية بلا شك ارفع منه من جهة المعقولات فلا يجوز للمسيحيين ان يرموا الاسلام بالوثنية على ما بينه وبين النصرانية من جهات الاتفاق حتى صح (لخناماسين) ان يقول انه بدعة مسيحية نعم لا يقول المسلمون بالوهية ابن مريم ولكنهم يحلون له كما كبر الانبياء (اذ قال الله يا عيسى انى متوفيك ورافعك الى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة) ويمترفون بأن مولده من المعجزات (واذكر فى الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا فاتخذت من دونهم حجابا فارسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا قال انما انا رسول ربك لا هب لك غلاما زكيا قالت انى يكون لى غلام ولم يمسنى بشر ولم اك بغيا قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا فحملته فانتبذت به مكانا قصيا فاجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت

ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً فناداه من تحته أن لا تحزنى قد
 جعل ربك تحتك سريراً وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً
 فكلى واشربى وقرى عيناً فاما ترين من البشر احداً فقولى انى نذرت للرحمن
 صوماً فلان أكلتم اليوم نسياً فاتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً
 فرئياً يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت امك بغياً فاشتت اليه
 قالوا كيف تكلم من كان فى المهد صبياً قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى
 نبياً وجعلنى مباركاً أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وبراً
 بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيماً والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم
 أبعث حياً ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ما كان لله ان
 يتخذ من ولد سبحانه اذا قضى امراً فانما يقول له كن فيكون كذلك
 يعمتدون ان جبريل هو الملك الذى نزل بهذه البشرى كما انه هو صاحب الوحي
 بالقرآن ويكرهون اليهود لانهم اضطهدوا المسيح وأرادوا ان يقتلوه ولا
 يعمتدون بموته كما تدل عليه آية (وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول
 الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفى شك
 منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله
 اليه وكان الله عزيزاً حكيماً) وقد التفت الامير عبد القادر الجزارى
 الى ما يوجد بين الدينين من التقارب فقال له امكان التوفيق بينهما
 وكان من ذوى المدارك السامية قال لو اصفى الى المسلمون والمسيحيون
 لأزلت من بينهم موجبات التنافر ولأصبحوا اخواناً فى الظاهر والباطن
 وكان يشبهه الانبياء الثلاثة الذين قالوا بوحدة واجب الوجود بثلاثة

أخوة من أمهات متفرقة (راجع كتابه نداء الغافلين) ولكننا لانمى النفس بتحقيق ما خطر ببال ذلك الأمير فان الاحقاد التى تتولد بين اعضاء العائلة هى التى لا مرد لها والتشابه بين بعض القواعد لايسد ذلك الخرق العظيم الذى انفرج بين المسيحيين والمسلمين فقد يجوز ان يقلع المسيحيون عن تجهلهم للاسلام ويعترفون بانه دين قريب من دينهم ولكن المسلمين لن يقبلوا ان يكون معنى التثليث غير تعدد الالهة ولا يعتقدون بان خطأ آدم هو رأس خطايا بنيه وانه السبب فى ذنوبهم ولا يقولون بان المسيح تجسم فى صورة الانسان ولا بانه افتدى النوع البشرى بنفسه ويقول جميع علماء التوحيد عندهم أن جعل المسيح ابن الله لا فائدة فيه ان كان الوالد والولد الهاً واحداً ومتناقض ان كان كل إلهاً قائماً بذاته على ان علماء اللاهوت من المسيحيين مختلفون فيما اذا كان التجسم يحصل لولا خطيئة آدم . كذلك لا ينبغي لنا ان نعلق الآمال بالوصول الى تحول رعايانا المسلمين فى الجزائر الى فرنساويين بل يجب علينا أن نجتهد فى ان نعيش معهم على ما يلزم من المسالمة والمواذعة وهو حل سهل بسيط لست ادرى لم اهمله الباحثون وقل الاقبال عليه كما اننى لم أقف على السبب الذى دعاهم الى الحكم بانه ليس لمسلم الجزائر الا ان يتحول أو أن يفنى وفى الواقع أن فرنساويين يفرحون بالتحول لكونه يلائم ميلهم الى ايجاد الوحدة فى كل شىء فكل موظف من فرنساويين يحلم ان تصير مدينة الجزائر مثل باريس مع ماهى عليه من اختلاف ارضها ومناخها وسكانها ولذا اعتادوا على ان يعدوا من التقدم صيرورة بعض القرى مختلطة وتحولها بعد ذلك الى بلاد لا فرق بينها

وبين البلاد في فرنسا وهي ملاحظات تافهة تمنع الناس من الوقوف على حاجات الجزائر الحقيقية اما منح الجنسية الفرنسية للالهالي فانه لا يفيد الا في بعض الشؤون الادارية المحضة ذلك لانه يجب بعض تغيير في الصورة وبسمح للتقارير الرسمية بتجسيم الاعداد ولكنه لا يجعل الجزائريين وطنيين فرنساويين ومع ان معاهدة الجزائر لا تسمح لنا بايجاد جنسيتنا عليهم فنحن لا نفتأ نعرضها كأنها امتياز يختص به قوم دون آخرين وكأننا نظن ان المسلمين يعتبرون من الامتيازات ما يحول بينهم وبين العمل بمقتضى ديانتهم ومع هذا يرى موسيو (روسل) ان في تجنيس الجزائريين بالجنسية الفرنسية حلاً للمسألة وان الاختلاط يحصل مع الزمن فيتحول السواد الاعظم حتى يصير فرنساوياً وتضيق البلاد على من يخرج عن الجمهور لتغيرها وتحول نزعات الاهالي فيضطرون الى الهجرة جنوباً ويخلفهم قوم آخرون أرفع شأنًا وأعلى مكانًا وعندى ان هجرة القبائل الى الصحراء جنوباً وهم باطل كالقول بالكان مضايقة الجزائريين فيزحون عن البلاد رويداً رويداً اما اقراض الاهالي شيئاً فشيئاً كلما دخل التمدن الاوروبى بلادهم فنحن لا نصدقه إلا قليلاً لان احتكاكهم بالمتدنيين ربما قلل من وسائل العيش لديهم ولكنه لا يؤثر في وجودهم بل لا يزالون يتناسلون أكثر من الاوروبيين ونضيف على ذلك ان المسكرات التى استعملها الاورباويون للتمجيد على وجود بعض الامم المغايرة لهم لا تؤثر عند أهالي الجزائر لكونهم يعقنونها مقناً شديداً

اذن وجب علينا ان نمش في الجزائر بجانب سكانها وفأحميها الاقدمين

وان تطلع عن التطلع الى التحويل أو التجنيس فكلاهما وهم وخيال ولا خوف من هذا بل الخوف يأتينا اذا أوجبنا عليهم التجنيس بجنسيتنا فنالوا مالنا من الحقوق السياسية . ولو تنزل حكمانا الى تعرف امة الجزائر التي يجهلونها أو يعرفونها على غير الواقع وعملوا على مرضاتها ببعض ما تميل اليه وتخفيف شيء من أفعالها لانتفى الخوف منها وزال خطرها وتصور أعظم مساعد على الاستمرار ولرب . معترض يقول ان تلك سياسة مبهمه فنجيب بانها كذلك وهو مقصود لان السياسة المرتبة على قواعد ثابتة وأصول معروفة من قبل أضرت بالجزائر أكثر من سياسة التجارب بحسب الظروف والاحوال غير انه يجب مع ذلك ان تبني السياسة المطلوبة على مبدأ واحد يتخذ أساساً لها وهو أن تكون مضادة لليهود على خط مستقيم ففى ذلك ضمان السلام والامن فى تلك البلاد لان ما أتاه موسيو (كرميو) من جعل اليهود كلهم فى الجزائر رعايا فرنساويين كان شؤماً على الدوام وما شؤمه آت من ان العرب اشمزت لحصول اليهود على ما لم يحصلوا هم عليه كما ذهب البعض بل هو آت من ان ذلك العمل أوجب اطلاق السراح لقوم يرى العرب انه كان من الواجب بقاؤهم تحت سيطرتهم وخالف ما فى نفوسهم من عظيم الاحتقار لليهود ومكن هؤلاء من الانتقام على ما أصابهم من المسكنة فى سالف الازمان اما العرب فهم يأنفون من التجنيس بالجنسية الفرنسية ليكون ذلك يلجئهم الى ترك دينهم كما قلنا ولكنهم يفضوننا لانا منحنا هذا الامتياز لاناس اعتادوا أن يروهم دون اقدامهم ولقد وصل تفطرس اليهود اليوم ان لم نقل وقاحتهم الى حد فى

١٣ - الاسلام

الجزائر بحيث صار الخصام قريباً بين الفريقين فالمسلمون لا يطبقون احتمال ما احتمله المسيحيون وقد ازفت الساعة التي يقومون فيها جمعا ليعيدوا بني اسرائيل الى ما كانوا فيه من الخضوع والامتهان ويكون الوقت قد فات لارجاع اليهود الى ملتهم وقد لا يسلم المسيحيون من محن الجزائر ولقد نستخلص من ابحاثنا هذه أمراً آخر بالنظر الى سياستنا في افريقيا الوسطى وهو أمر سهل النوال ذلك اننا لانشير على فرانس بالتحالف مع المسلمين وان كانت هذه هي السياسة التي رآها فرنسوا الاول ولكننا نرى انه يجب عليها معاملة الاسلام في افريقيا بما يسمعها من المحاسنة والتجمل فقد رأينا قبائل الفولبوسيين والخواصة اوصلوا نفوذهم الى تلك الاقطار الشاسعة التي تكتنف املاكنا في السكونغو فساروا سيراً متتابعاً من شادوا الى خط الاستواء وادخلوا الاسلام اينما حلوا ومن الصعب علينا ان لم نقل من المستحيل ان نوقف تيار هذه الحركة العظيمة فلنجهدهم في الانتفاع منها بقدر الامكان ولنمنع من التداخل فيما يحصل بين الأمم الاسلامية والوثنية من الانحلال والتكوين بل علينا ان نراقب هذه المعامع بين تلك الشعوب ولنترك الفولبوسيين يختطون من البربر ممالك على النسق الفطرى القديم ولنحذو حذو سلاطين المسلمين فنضيف حمايتنا الى حمايتهم على اولئك القوم المنحطين ولنحذر على الخصوص من الوقوع في خطأ سياسة الاستثمار وهو اعتبار دائرة النفوذ مجالا للكسب والاعمال ولوعارض قوم بانه لا ينبغي ان يكون هذا شأن فرانس المسيحية وانه يجب عليها ان تمنع جهدها انتشار الاسلام حول املاكها في افريقيا التحصنت في الرد عليه برأى

الكاردينال (هرجوتر) وهو ان تاريخ الكنيسة يعتبر ان فناء الامم الوثنية في الامم الاسلامية من المقاصد الالهية المحتمة قال الكاردينال (على الاسلام ان يهيئ الامم العربية في التمجيد وخصها الامم الافريقية الى التمدن فانها بما فطرت عليه من الانحطاط في الادراك وما تعودته من الشهوات محتاجة الى التحول عن الوثنية الى الاسلام ليتسنى تحويلها من الاسلام الى النصرانية لكن انى لنا في الوصول الى نقل تلك الامم من القرآن الى الانجيل وكيف يمكن ان يصير الوثنيون عباداً للمسيح بعد اعتناق الاسلام وهو الدين الذي يتمكن من القلوب فلا يفارقها هنا يختلط علينا المقصد الالهى فلا ندرك مرماه على انه لو لم يكن للاسلام من فائدة الا تحويل عبدة الاصنام من وثنيين الى موحدن وترقية اخلاقهم وملكاتهم لكفى بذلك داعياً الى معاملته بسياسة التلطف والاعتدال جرياً على قاعدة العمل بأخف الضررين